مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين الأمين وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. . وبعد:

فإن كان من اطلع على كتاب الله الكريم، وعلى سنة رسوله ﷺ، يدرك فى وضوح عنايتهما بعقيدة «التوحيد»، وحرصهما الشديد على إفراد الله بالكمال فى عالم الوجود، واستحقاقه وحده دون غيره من الموجودات تقديس المخلوقين له، وعبادتهم إياه. ولتفرده فى الكمال كانت ذاته الحقَّ وقوله الوحى لا يشوبه خطأ ولا وهم.

وقد ظل رسوله ﷺ يجاهد جل حياته الشريفة فى سبيل عقيدة التوحيد حتى أرسى أصولها، ودعم بناءها، وأحاطها بسياج قوى من قوله وعمله. ولم يشغله شاغل عنها طول حياته، ولم يصرفه عن تذكير المؤمنين والناس بها كافة أى صارف مهما عظم شأنه، وأخذ من نفسه مأخذًا قويًا. ذلك أن فى عقيدة التوحيد وحمل البشر على عبادة إله واحد أولى دلائل الصدق على أن صاحب الدعوة بها رسول الله حقًا، وعلى أن الدين القائم عليها دين الله صدقًا. فما كانت تقدسه البشرية أيام سيطرة الجهل والبدائية عليها من آلهة متعددة لم يكن إلا وليد المصادفة أو انقيادًا لعصبية تتصل بالبيئة أو الجنس بصلة. وما كان الشرك بعد إرسال رسل الله إلا نتيجة لعناد الإنسان أو غروره، أو حرص بعض الناس على استغلال البعض الآخر ممن يتملكه ضعف الشخصية أو يستهويه بعض متع الدنيا.

وكانت دعوة التوحيد أمارة صدق الداعى إليها على أنه رسول الله، ودليلَ صدق الدين المؤسس عليها على أنه دين الله، لما تنطوى عليه من جملة مظاهر:

أولاً: أن الداعى لذلك على هذا النحو لا يطلب لنفسه ميزة خاصة غير أنه

رسول الله، ولا يطلب لنفسه تقديسًا من التابعين لدعوته، كما لا يطلب لقوله فى غير حدود الرسالة التى أمر بتبليغها إلى الخلق عصمة مطلقة، ولتصرفاته فى غير دائرة هذه الرسالة تنزيهًا عامًا.

فعناية الداعى متركزة فى تبليغ رسالة الله، ليس له وراء هذا التبليغ مطمع شخصى، ولا هدف يجلب من تحققه له زخرف الحياة الدنيا من جاه أو مال أو سلطان.

وثانيًا: أن حمل الجماعة البشرية على الاعتقاد بإله واحد هو صاحب التدبير المطلق فى الوجود، وعلى قصر العبادة عليه، والطاعة له رفع لهذه الجماعة من ظلمة خرافات المصادفة وأساطير الزعماء الإنسانيين فيها. . وتوجيه سديد لها فى الحياة، تعمل فى كون الله طبق فطرته التى فطر الناس عليها، لا عائق من جهل بالواقع أو من تغرير إنسان يحول بينها وبين أن تهتدى بنور الله فى عالمه.

وثالثًا: أن هذا الاعتقاد نفسه يؤدى إلى شعور الفرد المؤمن بحريته الفردية، وكرامته الإنسانية، فى حدود وصايا الله من أوامر ونواهى. ووصايا الله الرب المعبود وحده، الكامل كمالاً مطلقًا، لا تنطوى إلا على خير الفرد وخير الجماعة.

فرسالة الله الحقة تتجه إذًا إلى تعريف الأفراد بقيمهم الذاتية وكراماتهم الشخصية، ودفع استغلال الناس بعضهم لبعض. وذلك لا يكون إلا عن طريق نقل التقديس والعبودية من دائرة الإنسان وعالَمه إلى من هو أرفع من الإنسان، ومن عالمه إلى الذى خلقه فسوّاه، وبالتالى عن طريق خلق روح المساواة بالكرامة الإنسانية فى الجماعة البشرية.

ولأن محمدًا ﷺ كان رسول الله حقًا لم يستهوه أن يرى من المؤمنين به وبدعوته نوعًا من الإكبار لشخصه يسمو به عن منزلة الإنسان. وبعدم انقياده لذلك كان وفيًا لدينه، ولكتابه الكريم، وآياته التى ينطق بعضها بقول الله العظيم: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[1]، كما كان بذلك أيضًا محاربًا فى نفسه أمرًا غريزيًا فى الإنسان هو الميل إلى الظهور.

---

(١) سورة الكهف: ١١٠.

وكان يمقت هذا الإكبار غير العادى لشخصه، ويدعو إلى تجنبه، خشية أن يؤدى إلى ثغرة فى دين الله ينفذ منها إلى هذا الدين الحنيف ما نفذ منها من قبل إلى دين عيسى عليه السلام مما خرج برسالته عن أن تكون رسالة الله الخالدة.

لذلك بصّر عليه السلام أمته بأمر هذه الثغرة، وحذر وشدد فى التحذير من أن يجر تعظيمه إلى الوقوع فى الشرك.

دخل عليه يومًا رجل يرجف خوفًا، وهم بالوقوع على قدميه ﷺ. فقال له: رويدك يا هذا! إنما أنا بشر، أنا ابن امرأة أعرابية كانت تأكل القديد[1].

وروى البخارى عن عمر بن الخطاب أنه سمع النبى ﷺ يقول: «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم! فإنما أنا عبده. فقولوا: عبد الله ورسوله». قال ابن حجر: وسبب قوله ﷺ هذا ما وقع من معاذ بن جبل، فقد روى أحمد فى مسنده عن معاذ بن جبل أنه لما رجع من اليمن قال يا رسول الله: رأيت رجالاً باليمن يسجد بعضهم لبعض، أفلا نسجد لك؟.

وكثيرًا ما كان ﷺ يكرر قوله: «إنما أنا بشر» كلما شعر بمبالغة المؤمنين فى تعظيمه. ولم يشغله عن التنبيه على خطر ما تؤدى إليه هذه المبالغة شاغل ما. وكيف يشغله شاغل عن ذلك وهو رسول الله. لا يبغى إلا أن يعيش فى حدود الرسالة لله. ونطاقها لا يحتمل تعظيم موجود آخر سواه، ربما يؤول تعظيمه إلى الاعتقاد بمساواته به جل جلاله. حتى فى سكرات الموت كان يؤكد بشريته، ويحدد تبعًا لذلك منزلته من الله الواحد الذى لا رب غيره.

روى مسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس يقول: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد. ألا فلا تتخذوا القبور مساجد. إنى أنهاكم عن ذلك».

وفى رواية البخارى عن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل[2] برسول الله ﷺ طفق

---

(١) اللحم المجفف يحفظ ليؤكل عند عدم وجود الطرى. يريد أنها كانت غير مترفة.

(٢) بالبناء للفاعل والفاعل محذوف أى الموت والمراد مقدماته. وفى رواية بالبناء للمفعول ويكون نائب الفاعل الجار والمجرور.

يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر ما صنعوا.

ذلك حال الرسول ﷺ مع نفسه إزاء ربه وجماعة المؤمنين به. لم يدع شائبة غموض تعتور علاقته بخالقه. فوضح أنه رسول لله ومع ذلك هو إنسان. لا يسمو به اختيار الله له إلى أن تصير له قدسية الله وعظمته وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] من آيات رسالته التى حملها للناس كافة. وكما أكد هذه العلاقة فى حياته الشريفة طلب أن يرعاها المسلمون بعده حتى لا يكون مصيرهم مصير من انحرف من النصارى واليهود الذين استحقوا لعنة الله بسبب ما حرفوا فى دين الله مما يتعلق بمنزلة أنبيائهم فاتخذوا قبورهم أمكنة للعبادة.

لكن المؤمنون بأى دين من الأديان لا يبقى إيمانهم به على حال واحدة ولا فهمهم له على نمط واحد.

ولو بقى إيمان الجماعة على حال واحدة وفهمها للدين على نمط لا يتغير لما احتاج دين الله إلى رسل يأتى الواحد منهم إثر الواحد، ولما احتاج دين خاتم الأنبياء والمرسلين إلى تجديد الدعوة إليه كما نصح القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[2].

الدين فى أساسه واحد لا يتغير. وأفهام المؤمنين به فيه هى التى تتبدل وتتغير، حسب العوامل التى توحى بذلك من بيئة ثقافية، واجتماعية ومواطن جغرافية. إلى غير ذلك مما يؤثر فى اختلاف الناس واختلاف ميولهم واتجاهاتهم. وقد يُنكر الدين فى أساسه فهمَ بعض المؤمنين به لمبادئه أو لمهمته الرئيسية إذا اتسعت الفجوة بينهما. ومقياس ذلك أن يبدو انحراف هذا الفهم عن أصول الدين التى بشر بها

(١) آل عمران ٧٩/ ٨٠.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

رسول الدين وأتباعه الذين صاحبوه فى المحن وضحوا بأنفسهم وأموالهم وأولادهم فى سبيل نصرته وإعزازه.

فالمسلمون الذين يؤمنون بأن علم اللوح والقلم من علم الرسول الكريم، ويرون أن الدنيا والآخرة من فضل جوده ﷺ، أو يعتقدون أنه كان يعلم كل ما كان وما يكون، يعكسون آية رسالته ويضعونه فوق الرسول ويشبهونه بالله أو يجعلونه شريكًا له. وليس ذلك مما دعا إليه الرسول ﷺ فى تحديد منزلته كما أمره ربه. وليس ذلك مما يستقيم مع مثل هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

لكن هذا الذى يتنافى مع مثل هذه الآية الكريمة آمن به بعض المسلمين اليوم وبالأمس وربما فى الغد أيضًا. وإيمانهم به لا يزيد فى قدسية الرسول ﷺ فحسب، بل يجعل لقوله وعمله العصمة حتى ما كان منهما خارجًا عن دائرة رسالة ربه. ويصبح محمد بن عبد الله بناء على ذلك ليس ذلك الإنسان المصطفى الذى كلف برسالة الله. بل يؤول أمره إلى ما آل إليه أمر عيسى ابن مريم حينما نظر إليه بعض أتباعه على أنه إنسان حلت فيه روح الإله وأن له طبيعة فوق طبيعة الإنسان؛ له طبيعة الإله والإنسان معا. فصورته الظاهرة صورة إنسان، وما كان وراءها يرجع إلى الله ويتفرع عنه. وكانت هذه النظرة إلى عيسى سبب تقديسه فتأليهه من مسيحى القرن الرابع الميلادى.. كما كانت سببًا فى أن عُد الاتجاهُ المسيحى الذى ينصح بها تحريفًا للمسيحية التى هى دين الله. لأن دين الله لا يدعو إلى عبادة غير الله ولا ينسب العصمة إلا لله.

ومن الدعوة إلى الخير التى طلبها القرآن الكريم أن يكون فى كل جيل إنسانى من يبين لخاصة المؤمنين قبل عامتهم أهداف الإسلام الرئيسية. وفى مقدمتها علاقة الرسول ﷺ بالله جل جلاله. وتحديد هذه العلاقة بالذات كما جاء بها القرآن كانت من الآيات الواضحة كما أسلفنا على أن الإسلام دين الله الحق لا دخل لإنسان فيه.. ووجودها واضحة فى جيل من أجيال المسلمين أمارة على أنهم لم ينحرفوا عن الإسلام الذى هو دين الله. كما أن وجودها مشوهة فى جيل آخر علامة على أن هذا الجيل له من الإسلام اسمه فحسب.

لهذا حرصت على أن أتناول جانبًا من جوانب هذه العلاقة فى حدود ما جاء به القرآن وصح من الحديث الشريف. هذا الجانب هو قول الرسول وعمله خارج دائرة الرسالة الإلهية. لأؤكد ما أكده الإسلام الذى هو دين الله من أن محمد بن عبد الله كان رسول الله ﷺ، ومع ذلك فيما وراء الرسالة كان إنسانًا. فله العصمة فيما أرسل به للناس من قبل الله من وحى متلوّ وغير متلوّ، وله حكم الإنسان المجتهد فيما أتى به من قول أو فعل بعد ذلك.

وسأعرض إلى أن هذا الشأن لنبينا الكريم كان شأن الأنبياء والرسل السابقين لا يختلف فى شىء عنهم. لأن الوضع عند الجميع سواء. كلهم رسل لله وكلهم أناسى من مخلوقات الله اختيروا فى أزمنة مختلفة وفى أجيال متعددة لأداء رسالة الله الواحدة الخالدة التى لا تختلف فى زمن عنها فى زمن آخر ولا فى جيل عنها فى جيل آخر ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ...﴾[1].

وهذا الازدواج فى النظرة إلى رسول الله لا يغير من تقديره واحترامه فى نفوس المؤمنين بدينه. فلم يزل هو الإنسان المصطفى وليس بالإنسان العادى. كرمه ربه باختياره لأداء رسالته، فكرمه المؤمنون به لما له من منزلة خاصة عند الله. لكن من جهة أخرى من حق الله عليه وعلى المؤمنين به أن يعرفوا حدود هذه المنزلة، فلا يشركوه مع الله فى درجة واحدة عن طريق إغفال المعنى الإنسانى فيه.

فالرسول ﷺ إذا أضيف إلى الخلق كان فى السماكين[2] وكان الجميع يدب على سطح هذه الغبراء. وإذا أضيف إلى ربه صاحب الفضل عليه كان بشرًا ككل البشر خاضعًا لقوة القاهر الغالب الذى اختص بالكمال وحده.

والله الموفق والمعين.

القاهرة فى صفر سنة ١٣٦٨
ديسمبر سنة ١٩٤٨

عبد الجليل عيسى أبو النصر

---

(١) الأحقاف: ٩.

(٢) نجمان نيران، أحدهما فى الشمال وهو السماك الرامح، والآخر فى الجنوب وهو السماك الأعزل. والمعنى: كان فى الدرجة العليا.